6 - منزلة العلماء (6)

خطورة تنقص العلماء (د)

1416/8/21هـ

الحَمدُ للهِ ... أَمَّا بَعدُ:

فَمَعاشِرَ المُسلِمينَ:

لاَ يَزالُ الكَلامُ مُتَعَلِّقاً بِمَنزِلَةِ العُلَماءِ، وبيانِ ما لَهُم مِنَ الحَقِّ والمَكانَةِ التي يَنبَغِي أَن يُنَزَّلُوا إِيَّاهَا.

وقَد سَبَقَ الكَلامُ فِي جُمَعٍ ماضِيَةٍ عَن بَعضِ المَظاهِرِ المَشينَةِ التِي فِيها انتقاصٌ لِلعُلَماءِ عُموماً، ولِبَعضِهِم خُصُوصاً، وبيانُ ما فِي ذلكَ مِنَ الخُطورَةِ عَلى ذلكَ المُتَنَقِّصِ، وَأَنَّ العُقوبةَ قَد تَكونُ مُعَجَّلَةً فِي دينِهِ قَبلَ دُنياهُ.

وفِي هَذا اليومِ -إِن شاءَ اللهُ تَعَالَى- سَيَكونُ الحَديثُ استِكمالاً لِما سَبَقَ طَرحُهُ مِن بعضِ المَظاهِرِ الدَّالَةِ عَلى تَنَقُّصِ العُلَماءِ.

فَيُقالُ وباللهِ التَّوفِيقُ.

إِنَّ مِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ واحتِقارِهِم: الطَّعنَ فِي أَنسابِهِم، وجَعلَ ذلكَ المَطعَنَ سُلَّمَاً لِلنَّيلِ مِن أَعراضِهِم والتَّشَفِّي بِنَقدِهِم ونَبزِهِم.

وهَذا العَمَلُ الإِجرامِيُّ مُحَرَّمٌ مَعَ آحادِ النَّاسِ، فَكَيفَ مَعَ العالِمِ الذِي يَتَضاعَفُ الإِثمُ فِي هَمزِهِ وَلَمزِهِ؟

ويُقالُ أَيضاً: إِنَّ هَذهِ الخَصلَةَ -أَعنِي الطَّعنَ فِي الأَنسَابِ- خَصْلَةٌ جَاهِلِيَّةٌ، كانَ أَهلُ الجاهِلِيَّةِ يَتفاخَرونَ بِها، فَيَزدَرونَ مَن هُم أَقَلُّ مِنهم نَسَباً، وعَلى هَذا فَيكونُ ذلِكَ الطَّاعِنُ فِي أَنسابِ العُلَماءِ خاصةً وغَيرِهِم عامةً مِمَّن حَمَلَ رايةَ الجاهِلِيَّةِ فِي التَّعَصُّبِ لِهَذا الأَمرِ المَقيتِ، وبِئسَ الخَلَفُ لِشَرٍّ سَلَفَ، بَل إِنَّ تِلكَ الخَصلَةَ المَقيتَةَ تُعتَبَرُ فَرعاً مِن فُروعِ القَومِيَّةِ، وإِن شِئتَ فَسَمِّها: قَومِيّةً مُصَغَّرةً، فَالقَومِيَّةُ العَرَبِيَّةُ تَعَصُّبٌ لِلعُنصُرِ العَرَبِيِّ أَيّاً كانَ مُعتَقَدُهُ ونِحلَتُهُ، فَمَظَلَّةُ العُروبةِ تَجمَعُ تَحتَها جَميعَ مَن يَنتَمِي إِليها عَلى اختلافِ دِيانَتِهِم.

وَأَمَّا الطَّعنُ فِي الأَنسابِ والتَّعَصُّبُ المَقيتُ لِنَسَبٍ مُعَيَّنٍ فَهُو القَومِيَّةُ المُصَغَّرَةُ، ويَجمَعُ القَومِيَّتَينِ قاسِمٌ مُشتَرَكٌ هُوَ: التَّعَصُّبُ العِرقِيُّ.

وَبِكُلِّ حال: فإنَّ المِيزانَ الذِي يَتفاضَلُ بِهِ النَّاسُ هُو ما ذَكَرَهُ اللهُ تَعَالَى بِقَولِهِ: {إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ } [سورة الحجرات:] فَالرِّفعَةُ الحَقِيقِيَّةُ هِي الرِّفعَةُ بِالعِلمِ وَالتُّقَى، لاَ بِالنَّسَبِ وَلاَ بِالحَسَبِ، ومَا أَمرُ صُهَيبٍ وعَمَّارٍ وبِلالٍ وسَلمانَ رَضِيَ اللهُ عَنهُم مِنَّا بِبَعيدٍ، فَهَؤلاءِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُم مِن غَيرِ العَرَبِ، وهُم أَشرَفُ وأَرفَعُ وأَكرَمُ عِندَ اللهِ مِن كَثيرٍ مِن أَشرافِ العَرَبِ.

لَقَد رَفَعَ الإِسْلامُ سَلْمانَ فَارسٍ وَقَد وضَعَ الشِّركُ النَّسيبَ أَبا لَهَبْ

وَقالَ الآخَرُ:

إِذا افتَخَرتَ بِآباءٍ لَهُم شَرَفٌ قُلنا صَدَقتَ وَلكِنْ بِئسَ ما وَلَدُوا

أَخرَجَ الشَّيخانِ عَن عَمرِو بنِ العاصِ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: «أَلاَ إِنَّ آلَ أَبِي (يَعني: فُلاناً) لَيسُوا لِي بِأَولِياءَ، إِنَّما وَلِيِّيَ اللهُ وصَالِحُ المُؤمِنِينَ»(1).

قالَ شَيخُ الإِسلامِ ابنُ تَيمِيَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى فِي كَلامٍ لَهُ عِندَ هَذا الحَديثِ: (فَأَخبَرَ ﷺ عَن بَطنٍ قَريبِ النَّسَبِ أَنَّهُم لَيسُوا بِمُجَرَّدِ النَّسَبِ أَولِياءَهُ، إِنَّما وَلِيُّهُ اللهُ وصالِحُ المُؤمِنِينَ مِن جَميعِ الأَصنافِ، ومِثلُ ذلكَ كَثيرٌ بُيِّنَ فِي الكِتابِ والسُّنَّةِ: أَنَّ العِبرةَ بِالأَسماءِ التِي حَمَدَها اللهُ وذَمَّهَا، كَالمُؤمِنِينَ والكافِرِينَ، وَالبَرِّ والفاجِرِ، وَالعالِمِ والجاهِلِ.

ثُمَّ قَد جاءَ الكِتابُ والسُّنَّةُ بِمَدحِ بَعضِ الأَعاجِمِ، قالَ تَعَالَى: {هُوَ الَّذِي بَعَثَ فِي الأُمِّيِّينَ رَسُولاً مِّنْهُمْ يَتْلُو عَلَيْهِمْ آيَاتِهِ وَيُزَكِّيهِمْ وَيُعَلِّمُهُمُ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَإِن كَانُواْ مِن قَبْلُ لَفِي ضَلاَلٍ مُّبِينٍ } [سورة الجمعة: 2].

وَفِي الصَّحيحَينِ عَن سالِمٍ أَبِي الغَيثِ عَن أَبي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنهُ قَالَ: كُنَّا جُلوساً عِندَ رَسُولِ اللهِ ﷺ فَأُنزِلَت عَليهِ سُورةُ الجُمُعةِ {وَآخَرِينَ مِنْهُمْ لَمَّا يَلْحَقُواْ بِهِمْ } قالَ قائِلٌ: مَن هُم يا رَسولَ اللهِ؟ فَلَم يُراجِعهُ حَتَّى سأَلَ ثلاثاً، وَفِينا سَلمانُ الفارِسِيُّ، فَوَضعَ رَسُولُ اللهِ ﷺ يَدَهُ على سَلمانَ الفارِسِيِّ ثُمَّ قَالَ: «لَو كانَ الإِيمانُ عِندَ الثُّرَيَّا لَنالَهُ رِجالٌ مِن هَؤُلاءِ»(2).

وَفِي «صَحيحِ مُسلِمٍ» عَن يَزيدَ بنِ الأَصَمِّ عَن أَبِي هُرَيرَةَ رَضِيَ اللهُ تَعَالَى عَنه قَالَ: قَالَ رَسُولُ اللهِ ﷺ: « لَو كانَ الدِّينُ عِندَ الثُّرَيَّا لَذَهَبَ بِهِ رَجُلٌ مِن فَارِسٍ -أَو قَالَ: مِن أَبناءِ فارِسٍ- حتَّى يتَناوَلَهُ»(3).

---

(1) رواه البخاري (5990)، ومسلم (215).
(2) رواه البخاري (4897)، ومسلم (2546).
(3) رواه مسلم (2546).

إِلى غَيرِ ذلكَ مِن آثارٍ رُوِيَت فِي فَضلِ رِجالٍ مِن أَبناءِ فارِسٍ.

ومِصداقُ ذلكَ ما وُجِدَ فِي التَّابِعينَ ومَن بَعدَهُم مِن أَبناءِ فارِسٍ الأحرارِ والمَوالِي، مِثلُ الحَسَنِ وابنِ سيرينَ وعِكرِمةَ مَولى ابنِ عَبَّاسٍ، وغَيرِهِم، إِلى مَن وُجِدَ بعدَ ذلكَ فِيهِم مِنَ المُبَرَّزِينَ فِي الإِيمانِ وَالدِّينِ وَالعِلمِ، حتَّى صارَ هَؤلاءِ المُبَرَّزونَ فِي ذلكَ أَفضَلَ مِن أكثَرِ العَرَبِ).

ثُمَّ قالَ شَيخُ الإِسلامِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى أَيضاً: (وكَذلكَ فِي سائِرِ أَصنافِ العَجَمِ مِنَ الحَبَشَةِ والرُّومِ والتُّركِ وغَيرِهِم سابِقونَ فِي الإِيمانِ والدِّينِ، لاَ يُحصَوْنَ كَثرةً، عَلى ما هُوَ مَعروفٌ عِندَ العُلَماءِ، إِذ الفَضلُ الحَقِيقِيُّ هُو: اتِّباعُ ما بَعَثَ اللهُ بِهِ مُحمَّداً ﷺ مِنَ الإِيمانِ وَالعِلمِ باطِناً وظاهِراً، فَكُلُّ مَن كانَ فِيه أَمكنَ كانَ أَفضلَ، وَالفَضلُ إِنَّما هُوَ بِالأَسماءِ المَحمودَةِ فِي الكِتابِ وَالسُّنَّةِ، مِثلَ الإِسْلامِ والإِيمانِ، والبِرِّ والتَّقوى، والعِلمِ والعَمَلِ الصَّالِحِ والإِحسانِ، ونَحوِ ذلِكَ.

لاَ بِمُجَرَّدِ كَونِ الإِنسانِ عَرَبِيّاً أَو أَعجَمِيّاً، أَو أَسوَدَ أَو أَبيضَ، ولاَ بِكَونِهِ قَرَوِيّاً أَو بَدَوِيّاً) انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَقالَ الإِمامُ مَرعِيُّ بنُ يُوسُفَ الكَرمِيُّ الحَنبَلِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (إِنَّ الذِي يُرجَعُ إِليهِ وَيُعَوَّلُ فِي الفَضلِ عَلَيهِ هُو الشَّرَفُ الكَسبِيُّ، الذِي مِنهُ العِلمُ والتَّقوى، وهُو الفَضلُ الحَقِيقِيُّ، لاَ مُجَرَّدُ الشَّرَفِ الذاتِيِّ الذِي هُو شَرفُ النَّسَبِ، بِشَهادةِ القُرآنِ وشَهادةِ النَّبِيِّ عَلَيهِ السَّلامُ، وشَهادةِ الأَذكِياءِ مِنَ الأَنامِ:

إِنَّ الفَتَـــى مَن يَقـــولُ هَا أَنا ذَا لَيسَ الفَتَـى مَن يَقُولُ كانَ أَبِـي)

ثُمَّ قالَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (فَمِنَ الغُرورِ الواضِحِ، وَالحُمقِ الفاضِحِ: أَن يَفتَخِرَ أَحَدٌ مِنَ العَرَبِ عَلى أَحَدٍ مِنَ العَجَمِ بِمُجَرَّدِ نَسَبِهِ أَو حَسَبِهِ، ومَن فَعَلَ ذلكَ فإِنَّهُ مُخطِئٌ جاهِلٌ مَغرورٌ، فَرُبَّ حَبَشِيٍّ أَفضَلُ عِندَ اللهِ مِن أُلوفٍ مِن قُرَيشٍ، قالَ اللهُ تَعَالَى فِي مِثلِ ذَلكَ: {يَا أَيُّهَا النَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَاكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنْثَى وَجَعَلْنَاكُمْ شُعُوباً وَقَبَائِلَ لِتَعَارَفُواْ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عَندَ اللهِ أَتْقَاكُمْ} [سورة الحجرات: 13].

وقَـالَ ﷺ: «إِنَّ اللهَ تَعَالَى قَد أَذهَبَ عَنكُمُ عُبِّيَّةَ الجاهِلِيَّةِ وفَخرَها بِالآباءِ، مُؤمِنٌ تَقِيٌّ أَو فاجِرٌ شَقِيٌّ، أَنتم بَنُو آدَمَ، وآدَمُ مِن تُرابٍ، لَيَدَعَنَّ رِجالٌ فَخرَهُم بِأقوامٍ إِنَّما هُم فَحمٌ مِن فَحمِ جَهَنَّمَ، أَو لَيَكونُنَّ أَهونَ عَلى اللهِ مِنَ الجِعلاَنِ التِي تَدفَعُ بِأَنفِها النَّتَنَ »[1]) انتَهى المُرادُ مِن كَلامِهِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

النَّاسُ فِي حِهَةِ التَّمثِيلِ أَكفـاءُ أَبـــوهُمُ آدَمُ والأُمُّ حَـــوّاءُ

---

(1) رواه الإمام أحمد في «مسنده» (8736) (10781) وأبو داود (8381).

نَفـــسٌ كَنَفسٍ وأَرواحٌ مُشاكِلَةٌ وأَعظُـــمٌ خُلِقَت فِيهم وَأَعضاءُ
فَإِن يَكُن لَهُمُ مِن أَصلِهِم حَسَبٌ يُفاخِـــرونَ بِهِ فَالطِّينُ والمَـاءُ
ما الفَضْلُ إِلاَّ لأَهلِ العِلمِ إِنَّهُمُ على الهُدى لِمَنِ استَهدَى أَدِلاَّءُ
وقَدْرُ كُلِّ امرِئٍ مَا كانَ يُحسِنُهُ وَلِلرِّجالِ عَلى الأَفعالِ أَسمـاءُ
وضِدُّ كُلِّ امـرِئٍ مَا كانَ يَجهَلُهُ وَالجاهِلونَ لأَهـلِ العِلمِ أَعداءُ

وقالَ الآخَرُ:

رأَيــتُ العِلمَ صاحِبُهُ شَريــفٌ وإِن وَلَـــدَتهُ آباءٌ لِئـــــــامُ
ولَيسَ يـَزالُ يَرفَعُهُ إِلى أن يُعَظِّمَ قَـــدرَهُ القَومُ الكِـــرامُ
ويتَّبِعونَهُ فِي كُـــلِّ أَمـــــرٍ كَرَاعِ الضَّـــأنِ تَتْبَعُهُ السّــوامُ
وَيُحمَـــلُ قَولُهُ فِي كُلِّ أُفـقٍ ومَن يَكُ عالِـماً فَهُو الإِمـــامُ

وَبِكُلِّ حالٍ:

فَالعِلمُ لَيسَ وَقفاً عَلى صاحِـبِ الحَسَبِ أَوِ المالِ أَوِ الجاهِ، بَل هُو عَطايا رَبَّانِيَّةٌ، ومِنَحٌ إِلهِيةٌ، يَتَفَضَّلُ اللهُ بِها عَلى مَن شاءَ مِن عِبادِهِ.

وقَدِ امتلأتْ كُتُبُ التَّراجِمِ بأخبارِ أَئِمَّةٍ أَعلامٍ مِمَّن لَيسُوا مِن أَهلِ الجاهِ والنَّسَبِ، فَمِن أُولئِكَ.

يَزيدُ بنُ أَبِي حَبيبٍ، كانَ أَبوهُ مَولىً لامرَأَةٍ مِن بَنِي حَسلٍ، وَأُمُّهُ مَولاةٌ لتُجيب، وكانَ يزيدُ مِن صِغارِ التَّابِعينَ، قَالَ عَنهُ الإِمامُ الذَّهَبِيُّ: (كانَ مِن حِلَّةِ العُلَماءِ العامِلينَ، ارتفَعَ بِالتَقوى مَع كَونِهِ مَولىً أَسودَ).

ومِنهُمُ الإِمامُ عَطاءُ بنُ أَبي رَباحٍ المَكِيُّ، الذِي انتَهَت إِليهِ فَتوى أَهلِ مَكَةَ، ذَكَرَ الحافِظُ فِي التَّهذيبِ عَن بَعضِ أَهلِ العِلمِ: أَنَّ عَطاءً كانَ أَسودَ أعوَرَ أَفطَسَ أَشَلَّ أَعرجَ، ثُمَّ عَمِيَ بَعدُ، وكانَ ثِقَةً فَقيهاً عالِماً كَثيرَ الحديثِ، وكانَ ابنُ عَبَّاسٍ رَضِيَ اللهُ عَنهُما يَقُولُ: (تَجتَمِعونَ إِلَيَّ يا أَهلَ مَكَّةَ وعِندَكُم عَطاءٌ؟!) وقالَ الأَوزاعِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: (ماتَ عَطاءٌ يَومَ ماتَ وهُوَ أَرضَى أَهلِ الأَرضِ عِندَ النَّاسِ).

والعجَبُ أَنَّ بعضَ النَّاسِ كانَ فِي أَوَّلِ أَمرِهِ مُقيماً عَلى المَعاصِي والمُنكَراتِ، فارتَفَعَ شأنُهُم بِالعِلمِ، فَقَد ذَكَرَ ابنُ رَجَبٍ فِي (ذَيلِ طَبَقاتِ الحَنابِلَةِ) فِي تَرجَمَةِ (عَبدِالرَّحمنِ بنِ النَّفيسِ): أَنَّهُ كانَ فِي

أَوَّل أَمرِهِ مُغَنِّياً، وكانَ ذا صَوتٍ حَسَنٍ، ثُمَّ تابَ مِن هَذا المُنكَرِ، وطَلَبَ العِلمَ، وحَفِظَ كِتابَ الخِرَقِيِّ، وقَرأَ القُرآنَ فِي زَمَنٍ يَسيرٍ، وذَكَروا عَنهُ أَنَّهُ كانَ فَقيهاً فاضِلاً قارِئاً مُجَوِّداً مَليحَ التِّلاوَةِ.

وهَذَا (أَحمَدُ بنُ عَبدِالسَّلامِ) كانَ قاطِعَ طَريقٍ فَتَابَ، ثُمَّ طَلَبَ العِلمَ، وسَمِعَ الكَثيرَ، وسَمِعَ مِنهُ خَلقٌ.

وإِن تَعجَبُوا فَعَجَبٌ مِن أُناسٍ رَفَعَ اللهُ بِالعلمِ شَأنَهُم وقَدرَهُم، وكانُوا فِي أَوَّلِ أَمرِهِم لَيسُوا على دينِ الإِسلامِ.

ومِن أُولئِكَ: (عَبدُاللهِ بنُ أَبِي الحَسنِ الشَّامِيِّ) ذَكَرَ ابنُ رَجَبٍ أَنَّهُ كانَ -مَعَ أَهلِ بَيتِهِ- مِنَ النَّصارَى، فَأسلَمَ صَغيراً وحَفِظَ القُرآنَ، وحَفِظَ شَيئاً مِنَ المذهَبِ الحَنبَلِيِّ، وسَمِعَ الحَديثَ، ودُكِرَ مِن أَوصافِهِ: الزَّهادَةُ والفِقهُ والصَّلاحُ والخَيرُ ونَفْعُ النَّاسِ.

وَلَو ذَهَبنا نُقلِّبُ صَفَحاتِ التَّاريخِ لِحَصرِ مَنِ ارتَفَعُوا بِالعِلمِ مِن غَيرِ أَهلِ الحَسَبِ والنَّسَبِ؛ لَشَقَّ ذلكَ، بَل إِنَّهُ لاَ يُحصيهِ دِيوانُ كاتِبٍ، بَل إِنَّ طائِفَةً كَبيرةً مِن أُولَئِكَ قَد بَزُّوا أقرانَهُم، وتَبَوؤوا مَكانَ الصَّدارَةِ والإِمامَةِ فِي أَقطارِهِم.

فَمِن أُولَئِكَ: الحسنُ البَصريُّ وابنُ سيرينَ فَقِيْهَا البَصرَةِ، ومُجاهِدُ وسُلَيمانُ بنُ يَسارٍ فَقِيْهَا اليَمَنِ، وزيدُ بنُ أسلَمَ ومُحمَّدُ بنُ المُنكَدِرِ ونافِعُ بنُ جُبَيرٍ فُقَهاءُ المَدينَةِ، وطاووسُ وابنُ مُنَبِّهٍ فَقِيْهَا مَكَّةَ، ومَكحولٌ الشَّامِيُّ فَقيهُ الشَّامِ، والحَكَمُ بنُ عُتبَةَ وعَمَّارُ بنُ أَبي سَلمانَ فَقِيْهَا الكُوفَةِ، وغَيرُهُم كَثيرٌ وَكَثيرٌ، بَل إِنَّ ابنَ خَلدونَ فِي مُقدِّمَتِهِ المَشهورَةِ عَقَدَ فَصلاً: فِي أَنَّ حَمَلَةَ العِلمِ فِي الإِسْلامِ أَكثَرُهُم مِنَ العَجَمِ.

وَبِكُلِّ حال: فَالطَّعنُ فِي الأَنسابِ، والتَّفاخُرُ بِالأَحسابِ، خَصلَةٌ جاهِلِيَّةٌ مَقيتَةٌ، ويَزدادُ شَرُّها إذا جُعِلَت ذَريعَةً فِي النَّيلِ مِن أَهلِ الخَيرِ والصَّلاحِ، وغالِبُ مَن كانَ هَذا شأنُهُ إِنَّما يَكونُ: بِدافِعِ الهَوى، والهَوى داءٌ عُضالٌ تَسري جِنايَتُهُ فِي أقوالِ الشَّخصِ وَأفعالِهِ كُلِّها، إِن لَم يَردَعها بِالعِلمِ وَالتُّقَى.

إِذا اعتادَتِ النَّفْسُ الرَّضاعَ مِنَ الهَوى فَـإِنَّ فِطامَ النَّفْـسِ عَنهُ شَديـــــدُ

اللَّهُمَّ إِنَّا نَعوذُ بِكَ مِن خائِنَةِ الأَعيُنِ وما تُخفِي الصُّدُورُ.

اللَّهُمَّ احفَظ عَلَينا جَوارِحَنا، واجعَلْها مُسَخَّرَةً فِي طاعَتِكَ يا رَبَّ العالَمِينَ.

الخطبة الثانية

الحَمدُ للهِ حَمداً كَثيراً طَيِّباً مُبارَكاً فِيهِ...

مَعاشِرَ المُسلِمِينَ:

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

احتقارُ سِيَرِهِم وجُهدِهِم، والتَّقليلُ مِن ذلِكَ فِي نُفوسِ سَامِعيهِ، وَالاستِخفافُ بِذلكَ الأَمرِ، واحتقارُ ذِكرِهِ، بَل والجَهلُ المُطبِقُ أحياناً بِأَخبارِ العُلَماءِ، وقَد يَكونُ مُعايشاً لَهُم فِي بَلَدٍ واحِدٍ عَشَراتِ السِّنينَ، بَينَما تَرى ذَلكَ الرَّجُلَ -أَو أُولئِكَ الصِّنفَ مِنَ النَّاسِ- يُحيطُونَ عِلماً بِأَخبارِ شاعِرٍ مَّا، فَيَحفَظونَ شِعرَهُ، ويَعرِفونَ مُناسَبَةَ القَصيدةِ وزَمانَها ومَكانَها، وقَد تكونُ قَصائِدُهُ أَو بَعضُها تَتَضَمَّنُ شَيئاً مِن خَوارِمِ المُروءَةِ والأَدَبِ، ناهِيكَ عَمَّا تَتَضَمَّنُهُ مِنَ الكَلامِ الذِي لا فائدَةَ مَرجُوَّةَ مِنه، لاَ فِي دينٍ ولاَ فِي دُنيا، بَل فِيه قَتلُ السَّاعاتِ، وإهدارُ الطَّاقاتِ الذِّهنِيَّةِ والمالِيةِ، فِي شِراءِ دَواوينِهِ وَما يَتعلَّقُ بِسيرَتِهِ.

فَلَم يَنفَعُوا أَنفُسَهُم بِالقُربِ مِن أَهلِ العِلمِ والأخذِ عَنهُم، ولَم يَكُفُّوا أَنفُسَهُم عَمَّا لاَ خَيرَ فِيه، مِن شِراءِ مَا لا يَنْفَعُ وقِرائتِهِ وحفظِهِ، بَل قَد يَتضَمَّنُ إثماً أَحياناً أُخرى، مَعَ إهمالِهِم مَعرفَةَ أُمورٍ شَرعِيَّةٍ، يَحتاجُونَها صَباحَ مَساءَ فِي عِباداتِهِم ومُعامَلاتِهِم، أَخرجَ الخَطيبُ البَغدادِيُّ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى بِإسنادِهِ إلى الأَعمَشِ أَنَّهُ قالَ: (إذا رأَيتَ الشَّيخَ لَم يَقرأ القرآنَ ولَم يَكتُبِ الحَديثَ، فاصفَع لَهُ، فإنَّهُ مِن شُيوخِ القَمَرِ. فقالَ أَبو صالِحٍ -أَحَدُ رِجالِ السَّنَدِ- قُلتُ لأَبِي جَعفَرَ: مَا شُيوخُ القَمَرِ؟ قالَ: شُيوخٌ دَهرِيُّونَ يَجتَمِعونَ فِي لَيالِي القَمَرِ، يَتَذاكَرونَ أَيَّامَ النَّاسِ، وَلا يُحسِنُ أَحَدُهُم أَن يَتَوَضَّأَ لِلصلاةِ!!) اهـ كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

عَدَمُ الإِصغاءِ لَهُم عِندَ حُضورِهِم، ومُحاوَلةُ التَّهويشِ عِندَ حديثِهِم، ومِثالُ ذلكَ: كأن يَتكَلَّمَ أحدُ المَشايخِ فِي مَحفَلٍ عامٍ أَو ما شاكَلَهُ، فَتَرى شِرذِمةً مِن سَقَطِ المَتاعِ مِن أُولئكَ الحاضِرينَ يُظهِرونَ عَدَمَ المُبالاةِ بِحديثِهِ، إمَّا بِالانشِغالِ فِي حَديثٍ بينَهُم أَو بِغَيرِهِ، بَل وقد يُصَاحِبونَ ذلكَ بِرَفعِ أَصواتِهِم مِن بابِ العِزَّةِ بالإِثمِ، وكُلُّ مَقصَدِهِم: احتقارُ ذلكَ العالِمِ ومَن كانَ عَلى شاكِلَتِهِ مِنَ العُلَماءِ.

والعَجَبُ الذي لا ينقضي: أَنَّهُ لو كانَ المُتكلِّمُ بَدَل الشَّيخِ شاعراً يُلقي قصيدةً لَهُ لَخَشَعَتْ لَهُ الأَصواتُ، ولَصَغَت لَهُ الآذانُ مِمَّن حَضَرَ، وكانَ أُولئِكَ النَّفَرُ مِن أَسبَقِهِم إلى الإصغاء التَّام.

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

جُرأَةُ بَعضِ النَّاسِ عَلى تَخطِئَةِ فَتاواهُم عِندَ سَماعِها أَو قِراءَتِها، وَيَظهَرُ ذَلكَ جَلِيًّا إِذا كانَت الفُتيا تُخالِفُ شَهوَةً أَو شُبهَةً فِي نَفسِهِ.

فَيُلاحَظُ عَلى أُولَئِكَ الصِّنفِ مِنَ النَّاسِ: أَنَّهُم يَتَكَلَّمونَ فِي فُتيا ذلِكَ العالِمِ، فَتارةً يَنقُدونَ، وتارةً يُخطِّئونَ، وتارَةً يُرجِّحونَ!!

والعَجَبُ الذِي لاَ يَنقَضِي: أَن تَرى أُولَئِكَ يَجهَلونَ أَحكاماً لاَ تَبرأُ الذِّمَّةُ إِلاَّ بِالعِلمِ بِها، معَ أَنَّهَا مِمَّا يُتقِنُهُ صِبيانُ المَدارِسِ!

وأَعجَبُ مِنهُ: أَنَّ أُولَئِكَ لَو أَرادَ أَحدُهُم أَن يَبنِيَ بَيتاً؛ لَسارَعَ إِلى استِشارةِ أَهلِ الخِبرَةِ وَالصَّنعَةِ وأَخْذِ رَأيِهِم وتَركِ ما سِواهُ، أَمَّا فِي أُمورِ دينِهِ، فَيجعلُ كَلامَ أَهلِ العِلمِ مَعروضاً عَلى مَا تَهوى نَفسُهُ وتَرضَى شَهوَتُهُ. إِنَّ هَذا لَشيءٌ عُجابٌ!

ومَا أَحسنَ قَولِ القائِلِ:

والسَّارِقِينَ إِذَا ما جَـــــنَّ لَيلُهُـم الدَّارِسينَ إِذاَ مَا أَصبَحوا السّورَا

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

إِظهارُ الفُروقِ بَينَهُم، أَو المُقارَنةِ بينَهُم، لا مِن بابِ الفائِدَةِ وَالعِلمِ، بَل مِن بابِ النَّقْدِ والذَّمِّ، فَيجعَلُ تِلكَ الفُروقَ بَينَهُم سُلَّمَاً إِلى الطَّعنِ فِي بَعضِهِم، ومِنَ الأَمثِلةِ عَلى ذَلِكَ:

كَأَن يَقولُ: الشَّيخُ الفُلانِيُّ يَسكُنُ فِي مَنزِلٍ فاخِرٍ فِي حَيٍّ رَاقٍ، بَينَما الشَّيخُ الآخَرُ يَسكُنُ فِي مَنزِلٍ عادِيٍّ فِي حَيٍّ مُتَواضِعٍ.

أَو أَنَّ ذَلِكَ الشَّيـخَ يَركَبُ سَيَّـارَةً فارِهَـةً، بينَما الآخَـرُ يَركَبُ سَيَّارةً مُتواضِعَةً، وهَلُمَّ جَرّاً مِن تِلكَ المُفارَقاتِ التِي جَعَلَها غِلافاً لِنَقدِهِ وذَمِّهِ لِذلكَ العالِمِ.

- وَمِن مَظاهِرِ تَنَقُّصِ العُلَماءِ:

اتِّهامُهُم بِما هُم مِنهُ بَراءٌ، وتَوزيعُ التُّهَمِ عَلَيهِم، فَتارةً يَزعُمونَ أَنَّهُم يَسعَوْنَ إِلى المَناصِبِ، وتارَةً يَزعُمونَ أَنَّ قَصدَهُم تَتَبُّعُ الدِّرهَمِ والدِّينارِ، إِلى غَيرِ ذلِكَ.

وَلَو فَتَّشتَ فِي حالِ ذَلِكَ المُنتَقِدِ -أَو أُولَئِكَ المُنتَقِدينَ- لَوَجَدتَ أَنَّهُ فِي الغالِبِ أَحَدُ رَجُلَينِ: إِمَّا مَريضُ القَلبِ عَلى العِلمِ وأَهلِهِ، وإِمَّا حاسِدٌ حاقِدٌ لِمَا وَهَبَهُمُ اللهُ تَعَالَى مِن نَعيمِ الدُّنيا {أَمْ

يَحْسُدُونَ النَّاسَ عَلَى مَا آتَاهُمُ اللهُ مِن فَضْلِهِ فَقَدْ آتَيْنَا آلَ إِبْرَاهِيمَ الْكِتَابَ وَالْحِكْمَةَ وَآتَيْنَاهُمْ مُّلْكاً عَظِيماً} [سورة النساء: ٥٤].

جاءَ فِي تَرجَمَةِ ابنِ المُبارَكِ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى: أَنَّهُ كانَ يُنفِقُ عَلى أَصحابِهِ، بَل ويُصلِحُ لَهُم بُيوتَهُم ويُجَصِّصُها، وكانَ إِذا أَرَادَ الحَجَّ جاءَ أَصحابُهُ بِنَفَقَتِهِم إِليه، فَيَحفَظُ تِلكَ النَّفَقَةَ، ثُمَّ يُنفِقُ عَلَيهِم مُدَّةَ السَّفَرِ كُلِّها، وَيَشتَرِي الهَدايا لأَولادِهِم، ويَقضِي الدَّينَ عَن بَعضِهِم، ثُمَّ يُرجِعُ نَفَقَتَهُم إِلَيهِم، إِلى غَيرِ ذَلِكَ مِنَ النَّفَقاتِ الكَثيرةِ.

ومَعَ هَذا الثَّراءِ الكَبيرِ فَقد قَالَ عَنهُ الذَّهَبِيُّ:

(عَبدُاللهِ بنُ المُبارَكِ، الإِمامُ، شَيخُ الإِسلامِ، عالِمُ زَمَنِهِ، وأميرُ الأَتقِياءِ فِي وَقتِهِ).

وَقَالَ عَنهُ الحافِظُ ابنُ حَجر: (ثِقَةٌ ثَبْتٌ، فَقيهٌ عَالِمٌ، جَوادٌ مُجاهِدٌ، جُمِعَت فِيهِ خِصالُ الخَيرِ).

وَهَذا الإِمامُ ابنُ خُزَيمَةَ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى، كانَ لَهُ بَساتِينُ نُزهَةٍ، وذَكَرَ الذَّهَبِيُّ فِي تَرجَمَتِهِ: أَنَّهُ عَمِلَ وَليمةً لَم يُعهَد مِثلُها، وكانَ يَمُرُّ عَلى الأَسواقِ سُوقاً سُوقاً يَدعُوهُم إِلى وَليمَتِهِ تِلكَ، وذَكَروا مِن وَصفِها شَيئاً عَجيباً، مِمَّا يدُلُّ عَلى كَثرةِ مالِهِ، ومَعَ ذَلِكَ كانَ عَلى جانِبٍ عَظيمٍ مِنَ العِلمِ وَالدِّيانَةِ، قالَ عَنهُ الدَّارَقطنِيُّ: (كانَ ابنُ خُزَيمَةَ إِماماً ثَبتاً مَعدومَ النَّظيرِ).

وَقالَ عَنهُ الذَّهَبِيُّ: (الحافِظُ الحُجَّةُ الفَقيهُ، شَيخُ الإِسلامِ، إِمامُ الأَئِمَّةِ، يُضرَبُ بِهِ المَثَلُ فِي سَعَةِ العِلمِ والإِتقانِ).

وَقالَ الذَّهَبِيُّ أَيضاً: (ولابنِ خُزَيمَةَ عَظَمَةٌ فِي النُّفُوسِ، وجَلالَةٌ فِي القُلوبِ؛ لِعِلمِهِ ودِينِهِ واتِّباعِهِ السُّنَّةَ) انتَهى كَلامُهُ رَحِمَهُ اللهُ تَعَالَى.

وَبِكُلِّ حالٍ:

مَا أَجمَلَ الدِّينَ والدُّنيا إِذا اجتَمَعا وأَقبَحَ الكُفرَ والإِفلاسَ بِالرَّجُلِ

اللَّهُمَّ اهدِنا لأَحسَنِ الأَخلاقِ لاَ يَهدِي لأَحسَنِها إِلاَّ أَنتَ، واصرِف عَنَّا سَيِّئَها لاَ يَصرِفُ عَنَّا سَيِّئَها إِلاَّ أَنتَ...